

الاقتصاد

كاتبه المصريون

أخذت الجرائد اليومية تعمل منادية بوجوب تلافي الحالة الاقتصادية المريعة التي تضيق على الفلاح الخناق وإنك لو امتزجت بمختلف سكان القطر لما سمعت حمدا ولا شكرا بل يشكوا اليك الكل من الضيق المستحكم فيخيّل اليك لأول وهلة أن الازمة متحكمة . ولكنك لا تأبث حتى يتضح لك أن هذه الصيحات تنجبت عن سوء تصرف أدى إلى ضيق مفتعل . فالفلاح يجهل كيف ينظم انتاجه ولا يحاول أن ينظم نفقاته . لنفترض أن مزارعا متوسط الحال يمتلك عشرة فدادين لا أكثر هو موضوع الدرس فأول ما يصح استنتاجه هو أن مدخول هذا الشخص الشهري يتراوح بين عشرة وخمسة عشر جنيها وهو مبلغ لا بأس به لرجل مثله يعيش عيشة بسيطة في قرية لم تدخاها دواعي الترف مطلقا . فإذا تعهد ماله بعهده بعناية لما احتاج إلى ملء الدنيا صياحا كما يفعل الآن . لأنه يسكن في منزله الخاص ولديه مطيته . ومن ماشيته ينتج حاجته من السمن والجبن واللبن وفي إمكانه انتاج ما يحتاج إليه من الخضروات من أرضه دون أن يخل بمحصوله الكبير فوالحالة هذه يكون معتمداً على إرادته في استجلاب حاجته من الكساء وما يريد من أسباب الترف وهي لديه قليلة

لنلج الآن منزله فنرى أنه يحيا في شبه مرتبط للبهائم فالاثاث وسخ مخرق والأرض والحيطان يدعوان الزائر إلى الانقباض . الأمر الذي تستدر الشفاق عليه وإذا تطلمت إلى أطفاله وجدتهم قذرين مهملين جهلاء . ذلك لأنه يضمن بدفع بضعة قروش لتعليمهم ولو تعلما أوليا . وعلى فرض أنه فعل فإن نفقات تربيتهم لا تكون جملا ينوء منه

هنا يحظر ببالك أن تتساءل فاذن أين ينفق إرادته هذا . لأنك مهما قلبت الأمور لا تجد مبررا للشكوى . فمثلا لا تكاد تجد أثرا للقمار في القرى وعلى فرض أنه يتعاطى المغيبات أو الخمر فإن ذلك لا يكلفه إلا بضعة قروش لا تتعدى العشرة

كل يوم . وكذلك وسائل الدعارة غير متيسرة . ولو وجدت فان عواطفه المتحجرة لا تدفعه للدفاع في الانفاق على هذا الباب

في اعتادي ان هناك سببان اساسيان لهذه المحنة . الاول حب الظهور والثاني الطمع فانك لو انتبهت لحاله قليلا لوجدته بلا عمل يقضى طول يومه في التحدث مع امثاله من الكسالى في امور لا فائدة فيها في حين انه يشجع النقراء على التحكك به والعيش على حسابه فيكون له بطانة يسميها « رجاله » ليستد بهم ازده على زعمه فتجد عنده خادمين أو ثلاثة ومثلهم من الخادmates في حين أن عائلته الخاصة لا تحتاج الا إلى خادم وخادمة . صحيح أنه لا يعطيهم مرتبات تذكر ولكنه يطعمهم وربما يكسبهم ايضاً هم واولادهم . اضف إلى هؤلاء من له بهم صلة نسب فهو يأويهم عنده حفظاً لاسمه فيتكلمون عليه ولا يحاولون اكتساب طعامهم بالسعي . حقيقة ربما يتظاهر بعضهم بالاشتراك في ادارة المزرعة ولكن لا يفكر احدهم في العمل جدياً لسد مسد عامل يكلف المالك بضع قروش كل يوم بالاقبل بل ينحصر جهدهم في الاشراف على العمال ولاجل ان لا يجيدهؤلاء عن الطريق السوى يزوجهم وهكذا يضيف إلى عائلته جماعة أخرى ويجتهد أن يعقد لهم على من هن دون من عقد هو عليها حتى لا يكونون ارفع منه قدرا واكثر غنى فيظل وحده زعيم العائلة ورجلها الا واحد

أما هو فيعتقد من الزواج صفقات يظنها لصالحه وذلك اما طمعا في بضع قراريط تملكها المرأة - لان الريفيين يوزعون أغلب ما يملكونه على اولادهم الذكور خوفا من أن يرثهم رجال غرباء عن طريق الوارثات - أو طمعا في تعزيز مركزه الادبي بمصاهرة عائلة معلومة ففي منزله تجدد عائلته وعائلات أقاربه وأتباعه

والفلاح المصري مزواج مطلق على غير قاعدة فانك لا تجد أثرا للفرام الدافع إلى الزواج الا في النادر جدا فاذن يكاد يكون الدافع له هو تكوين صلة عائلية تحاول مدعا قدر الامكان ليعيش حسب اعتقاده « عزيز الجانب » في قرينه وربما أن المرأة ليست في نظره الا ضرورة وقتية فهو ينتقل من

وأحدة لاخرى حسب لهوائه وإطماعه . وهذا ما يحدو بالمرأة الى العمل على تعجيزه بكل ما في وسعها من الحيل حتى لا ينبذها لاجل غيرها فتتعمد الاسراف أكثر مما هي مسرفة بطبيعة جبلها وعادة الوسط حتى لا تبقى له مالا للزواج

وإذا ما تزوج ينفق دون حساب حبا في الظهور . وكذلك قل إنه يفعل لمناسبات السرور كالختان أو في حوادث الموت وليس أسرع من في تزويج أبنائه قبل أن يصبح في ميسور الواحد منهم أن يربح ما يحتاج الى انفاق على نفسه خاصة

ومع اتباعه لكل ما سبق لا ينفق الفلاح دخله ولا يضطر الى رهن أو بيع ما يملكه لانه لا يبتهم الا المحاصيل الثانوية ويؤثر بعض التأثير فقط في المحاصيل الرئيسية أما سبب الخراب فهو الطمع فانه بدلا من أن يقتصر على ما لديه من الارض فيحسن استعماله يدفع بأمل الاثراء السريع وحب الفخفة الى التعاقد على صفقات كثيرأما يورطه فيها رغبته في معاندة خصم والتكايه به . فاذا كان يملك مالا زاحم غيره على شراء عدة فدادين بالتقسيط . وقد يقترض برهن ما يملكه من الارض لدفعه قسطا من ثمن الارض الجديدة والا فهو يزاحم رفقاءه في استئجار ما هو معروض ويدفع أى ثمن يعجز الخصم عن دفعه . كل هذا وهو متيقن أن رجاله من اتباع وأقارب يكفون لاستثمار أضعاف هذه المساحة وهو الامر الواقع لو كانوا فقط يعملون ولا يقتدون به مهمالين

فالفلاح لا يفكر في الغد حتى ولا ينظر تحت قدميه وهو جال يسهل اغواؤه بالفاظ منمقة ، يستدين ليس رغبة في الاستدانة بل متورطا حتى كادت الاستدانة تصبح من طبيعته وقد اختبرت بذاتى أنه يدفع لآخذ ما ليس له حاجة لا بشيء الا لانه سيدفع الثمن في المستقبل يوم يكون لديه عشرات أو مئات من الجنيهات . وليته يصفى حسابه عندئذ فهو بالعكس يؤجل

التسديد بر بنى فاحش . ويحرضه المرابي على ذلك لان المرابي لا بدله من استثمار رأس ماله ايعيش هو أيضا وهو يريد أن يمتلك كل شيء

هذا نموذج لحال الفلاح يصح تطبيقه على من يمتلك بضع قرارات وعلى من يمتلك العشرات من الافدنة او المئات أيضا

ولننتقل الآن الى الموطن المتحضر . فنجد انه اشد اندفاعا من الآخر خصوصا وان ساكن المدن لديه من الكمبيالات اكثر مما يحيط بالقروى وما عليك الا درس حالة طلبة المدارس ومقدار الاسراف الذي يتبعونه والمظهر الكاذب الذي يحاولون التأثير على غيرهم به بالرغم من فقر آبائهم

حالة الموظفين ونفقاتهم الغير معقولة في المحال العمومية وبؤس داخليةهم فالواحد منهم ينفق ابراده وما يستدينه لاجل المظهر

حالة الاعتماديين الذين ياكلون من اموال اقربائهم ويتسولون منهم لكي يظهروا على حد تعبيرهم بالمظهر الذي لا يليق بمقامهم وبمقام العائلة

واني اكتب هذا في عاصمة احدى المديريات وقد كنت جالسا في مشرب اللوكاندة التي انا نازل فيها وبقرى صديق من البندر اخذ يعرفني دخيلة كتبة ادارات الحكومة وكم ياخذ كل منهم مرتبا شهريا بالتقريب وهم يسرعون قاصدين قضاء الليلة في دار هو مقابلة للمكان الذي نحن فيه جالسان

حدث عن اصحاب هذه الاوراق ذات الخمسة جنيهات — هكذا اسميتهم لان متوسط مرتب كل منهم في الشهر لا يزيد كثيرا عن قيمة هذه الورقة — ولا خرج ولكن لا تتطلع الى وجوههم الهزيلة التي فعل الجوع وسوء الغذاء مع السهر والسم الزعاف الذي يتهافتون عليه فيها فعله المريع لئلا ينقبض قلبك

ولم اتمالك من الاقتداء بهم فدخلت نسيج العنكب اليوناني وهناك شاهدت ذوات الجنيهات الخمسة ومجاميع الاعيان والاغنياء ملتفين كالجهالة حول مسطح خشبي وامام كل منهم كلسا من المدام وهم لاهون عنه لانصرافهم بكايتهم متتبعين حركات بطيئة لهيكل حيوان ضعيف هزيل تحكم من ثيابه ان امرأة رأسها يتحرك تارة وحدها واخرى معتمدة على قطعة عظم لونها ازرق . قال لي صديقي انها يد

وتتبع تلك الحركات التي تكاد تكون زحفا زفرات اواناث قيل لى انها اناشيد
وبعد ما احتسيت قهونى طالبنى الخواجه بشمنها ثلاثة قروش وهذا لان المطربة
الرشيقة تشتغل الليلة وبالسؤال علمت ان الوسكي بالماء يكاف ستة قروش
وبالصورة تسمه

حدثك عن اختبارى من درس ذوات الخمس جنيهاً واطن في ذلك
الكفاية ولا داعى الى بسط حال ذوات العشرة وذوات الخمسين. لان الصورة طبق
الاصل ولكنها مكبرة

وقبل ان اختم هذه الكلمات اريد ان الفت انظارك يا قارئى عساك تبحث
لذاتك عن مقدار الدين المستحق للخياط ولكوستا ولصانع الاحذية وتساؤل بعد
ذلك الى حيث يلقى هذا المخلوق بجسده كي ينال حقه الطبيعى من الراحة لتعرف
كيف يقوم مبكرا نشطا لاداء واجباته المكتبية. وبالله ماذا تنتظر من امرأة هذا
الحيوان ان تفعل بل ماذا تظن بإمكانه ان يؤدي من الاعمال والسهر قد اجهد
فكره بينا مطالب المدينين تتمثل امامه كل دقيقة

الم يحن لهذا البلد ان تنظم فيه التربية الاستقلالية بعد . ليس هناك طريق
للاستقلال الا منها